الفصل السادس عشر

الخاتمـة

إن أسباب فشل ديرفيو النسبى فى مصر عديدة معقدة (من الصعب أن نستخدم كلمة الفشل بالمعنى المطلق للكلمة فى وصف رجل اعتزل فى فرنسا ومعه ثروة قدرها ٥ ملايين فرنك). فسقوط بنك ديرفيو كان متضمناً فى طابع ازدهاره السريع. ومن ناحية أسس هذا البنك ازدهاره على رواج القطن، وكان من المحتم أن يتأثر بانهيار الأسعار. ومن ناحية أخرى كان تفوق ديرفيو الشخصى فى الإسكندرية ناجماً عن علاقاته بالخديو، وهى علاقات فرضت عبئاً ضخماً على موارده. ولقد كانت الشركة تتحمل هذا العبء بصعوبة فى أوقات الرخاء، فلما جاءت الأزمة انهارت من شدة الإجهاد. ومما عقد الموقف اعتماد الشركة على تعاون ومساعدة المالية الأوربية التى توقفت قدرتها واستعدادها على المساعدة غالبًا على عوامل خارجة عن الموقف التجارى فى مصر. وعلى وجه الخصوص زاد من قسوة اعتماد ديرفيو على أوروبا أن علاقاته الرئيسية كانت بباريس لا بلندن، وأن مراسليه فى باريس كانوا من أشد المحافظين فى سوق محافظة.

تلك كانت، من جانب، الأسباب الموضوعية لفشل بنك ديرفيو وشركاه. ومن جانب آخر كان هذا الفشل من صنع رجل بقدر ما كان بسبب تحالف مجموعة من الظروف غير المواتية. وبهذا المعنى كان ديرفيو أسوأ أعداء نفسه.

ومن الخطأ أن نصور هذا العامل الشخصى بأنه أقل فى أهميته - أو أكثر - من الاعتبارات الموضوعية التى لحظناها فيما سلف. فالمؤرخ الذى يقترح مقارنة ووزن متغيرات ذات طبيعة مختلفة، أى الذى يحاول جمع وطرح التفاح والكمثرى، هو فى غالب الأمر أكثر جرأة وأقل حكمة. ولنقل ببساطة إن سوء إدارة ديرفيو لشركته ومركزه كان عنصرًا أساسيا فى فشله النهائى. ونحن لا نعنى بسوء الإدارة الأخطاء التكتيكية التى ارتكبها من حين لآخر (فكل رجل أعمال يرتكب أخطاء) وإنما نعنى الأخطاء الاستراتيجية طويلة المدى، والطموح الخاطئ الذى دفعه إلى اختيار الطريق الخاطئ والأوهام التى قيدته إلى نهاية حياته المالية فى مصر تقريبًا.

ولا يحتاج الطموح إلى تفسير، فكثير من الناس تطلع مثل ديرفيو إلى السماء. وككل رجال الأعمال تقريبًا فى مصر كان ديرفيو انتهازيا، تُلقى أرباح المضاربة الضخمة والعمليات المالية

الخطرة عنده ظلا على التجميع الدءوب للمكاسب التجارية الصغيرة. وعلاوة على ذلك كانت الغاية عند ديرفيو أهم من الوسيلة فى مجال العمل المالى. وبخلاف صديقه أندريه لم يكن ينظر إلى العمل المصرفى كأسلوب فى الحياة بكل قواعدها وتبريراتها، وإنما رأى فيه سلمًا إلى أشياء أكبر وأفضل، واعتقد أنه حر فى أن يعدل ويلغى القواعد كلما مضى الوقت. وفى النهاية اكتشف خطورة الصعود على سلم متهاو!

ولكن ماذا عن الأوهام؟ كيف يفسر الإنسان إصرار ديرفيو على الثقة بإسماعيل فى مواجهة تحذيرات أندريه وحقائق التجربة المحزنة؟ أنقول نوعًا من سذاجة المشاعر؟ لا شك فى ذلك، إلا أن ذلك وحده ليس كافيًا. بل على العكس فلأوهام ديرفيو - أو غروره - نتائج أبعد كثيرًا - وتلك أمور تستحق البحث بشىء من التفصيل.

فإذ كان ديرفيو رجلا أميناً فى أعماقه، فقد وفق فى داخل نفسه بين دوافع الربح والأنانية عنده وبين رغبته المخلصة فى مساعدة إسماعيل على أن يجعل مصر مزدهرة. وكان الاعتبار الأول أساسيا من ناحية الواقع، وكان الاعتبار الثانى أساسيا من ناحية المبدأ. وصحيح أن ديرفيو لم يذهب إلى حد الاعتقاد أن قروضه لإسماعيل سنة ١٨٦٣ - التى استهدفت ضمان خضوع الخديو ودفعه إلى فكرة القرض العام - كانت عملا من أعمال الخير المنزه عن الغرض، ولا أن خدماته الشخصية لإسماعيل (كسكرتير خاص وكاتم سره.. إلخ) قدمت بروح الكرم الذى لا أنانية فيه. ولكن ديرفيو كان معجبًا بما يصنعه هو لإسماعيل أكثر من إعجابه بما كان يصنعه إسماعيل له. وفى صفحة الحساب الذى قدره ديرفيو بشكل غير واع - لعلاقته بالخديو كانت خدماته تفوق جزاءه. ومن هنا يتبين سبب إشارته المستمرة إلى الدين المستحق له، وإشارته عندما تقدم الزمن وفترت عواطف الرجلين إلى الجحود الذى رآه.

ولا شك أن ديرفيو كان مخلصًا فى موقفه هذا. فقد كان يعتقد بحق أنه بتقديم المال إلى الخديو بفوائد عالية، كان يعطى أكثر مما يأخذ، وأن عمولة ١٠٪ والأسعار الباهظة المأخوذة عن البضائع المقدمة إلى القصر والحكومة ليست أمرًا مبالغًا فيه، وأن المصائب التى أدى إليها وضع أرصدته - عن وعى وإرادة - تحت تصرف إسماعيل هى خطأ إسماعيل. ولقد خاب أمله وتألم عندما أحس استعداد عميله الخديو أن يتخلى عنه فى وقت الحاجة، وبلغ استياؤه إلى حد استخدام وسائل الضغط السياسى وغيره من الوسائل التى كان قد أدانها من قبل. ولكن أشد ما يلفت النظر أنه حتى بعد خصامه المرير مع سيده، ظل يأمل ويتوقع أن يشمله إسماعيل برعايته ويساعده.

والخلاصة أن ديرفيو كان متفائلا بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد كان يعتقد فى نبل ذاته، وفى نبل الآخرين أيضًا. وشعر أنه كان طيبًا مع إسماعيل وتوقع أن يكون إسماعيل طيبًا معه. غير

أن هذا يؤدى بنا إلى السؤال الحقيقى: كيف أمكن لديرفيو أن يوفق بين حقائق سلوكه إزاء إسماعيل وبين مفهومه عن هذا السلوك.

وربما لا يستحق هذا السؤال إجابة لو كان الأمر متعلقًا بديرفيو وحده، لو كان هذا التوفيق بين المسلك والضمير هو ثمرة الترشيد الفردى باستخدام حجج لها طابع شخصى. إن على كل واحد منا أن يتعايش مع نفسه، ومعظم الناس ينجحون فى ذلك. ولكن ديرفيو لم يكن وحده. فقد كان أكثر دقة وشرفًا من زملائه بالإسكندرية ومعظمهم رضى عن نفسه بتبريرات بهلوانية. ويكفى أن يقرأ المرء أرشيف القنصليات ليصطدم بالإخلاص الذى قدمت به معظم المطالب ضد حكومة الخديوى، وبالاستياء الأخلاقى الحقيقى من جانب أشد الأوغاد شهرة عندما ووجهوا بجهود مصر لحماية نفسها من النهب!. وغنى عن البيان أنه كان هناك عدد من رجال الأعمال تظاهروا بالغضب لأن مصر قد خانت الأمانة، وحاولوا أن يلونوا مطالبهم بالقيم الخلقية، فمن الصعب مثلا أن ننسب إلى «بريفى» صفة الأمانة، وهى أرخص الفضائل. ولكن المؤرخ مع ذلك مضطر إلى إدراك أن معظم مجتمع رجال الأعمال فى مصر كانوا أمناء من وجهة نظر أنفسهم. وهذا الاتحاد بين الاستغلال الواقعى غير المبدئى بشكل واضح وبين الضمائر الواضحة المستريحة هو الجانب البارز فى العلاقة بين المستعمرة الأجنبية وممثليها الديبلوماسيين من ناحية وبين السكان الوطنيين والحكومة من ناحية أخرى.

وتفسير ذلك يكمن فى أنه بينما كان معظم الأوربيين فى مصر يعيشون وفقًا للمبادئ، كان هناك فى الحقيقة نوعان من المبادئ: مبادئ للتعامل فى داخل مجموعة الغربيين، ومبادئ للتعامل مع السكان المحليين. وبعض الأوربيين كانوا أكثر حدة من الآخرين فى تحديد حد فاصل بين المجتمعين. فقد كان هناك من الأوروبيين من يعتقد أن التركى خائن بطبيعته وأن العدل الإسلامى فاسد، وأن المواطن المحلى خسيس وجدير بالاحتقار[1] وكان هناك آخرون لا يعتقدون أن التركى سىء عن قصد وإنما هو كسول ومهمل، ويدركون صحة القانون الإسلامى فى إطار المجتمع المصرى، وإن كانوا يشعرون أنه لا يقدم حماية كافية للأجانب الذين تعودوا على شرائع أخرى، وأن المحاكم الوطنية خاضعة إلى حد كبير لضغط الحكومة. وهؤلاء يشعرون بالعطف على العربى لا احتقاره وأن كانوا ساخطين على عدم تكيفه مع النظام والدقة المتضمنة

(١) ابتداء من هذه الفقرة، وفى فقرات قادمة، يرى القارئ نماذج من تعسف عديد من الأوربيين آنذاك – وحتى اليوم – فى فهم المجتمع المصرى وروحه وحضارته. وفى الفقرات التالية تبدو محاولتهم تفسير عداء المصريين للأوربيين آنذاك على أساس دينى معادى للمسيحية، ولا شك أن هذا التفسير مناقض للحقيقة والواقع، وهو ليس إلا ستارًا لتغطية عداء الشعب المصرى – مسلمين ومسيحيين – للاستغلال الاقتصادى والاجتماعى البشع الذى عاناه على يد الأوربيين.

فى الصناعة الحديثة والتجارة. وثمة أناس كانوا يرون فى كل مصرى عدوًا كامناً تحتاج نواياه السيئة إلى اليقظة والإجراءات العنيفة، وآخرون ينظرون إلى المواطنين المحليين كأطفال يحتاج سوء تصرفهم وعبثهم إلى الرعاية الأبوية من جانب أصدقائهم وحماتهم الأوربيين. غير أن الجميع كانوا متفقين على أن المجتمع المصرى متخلف وأن الحضارة المصرية أردأ من حضارتهم، وأن الأوروبيين يتحملون الخضوع لعادات البلاد، وأن على المصرى أن يتعلم أساليب الأوروبيين ويقبل عدلهم، وأن مقاييس السلوك المقبولة فى أوربا - قيم الأمانة والتعامل العادل والتعقل.. إلخ التى تشكل على الأقل فى المبدأ العلاقات الاجتماعية والمالية فى الغرب - ينبغى أن تعدل حتى تناسب ظروف هذه البيئة الغريبة.

وليست مهمة هذا البحث الحكم على مزايا هذا الرأى. فالمهم عند المؤرخ الذى يختلف عن رجل علم الأخلاق - هو أن يصف الظاهرة ويدرس نتائجها.

وبعض جوانب هذه المسألة قد نوقش فعلا من خلال السياق، فالعدل الذى كان يمارس فى المحاكم القنصلية بالإسكندرية أو فى المفاوضات مع الحكومة المصرية لم يكن إلا كاريكاتيرا للمثل الغربية. وفى العادة روعيت المحافظة على الشكل، إذ كان على الأوروبى أن يثبت دعواه، ولكن المقاييس المزدوجة كانت تنعكس فى الوزن المختلف الذى يعطى لشهادة الأوربى أو مصالحه بالنسبة لشهادة المصرى أو مصالحه. فكلمة الرجل الأوربى أثمن من كلمة المصرى، وأملاكه أغلى من أملاك المصرى، ومحاميه أقيم من محامى المصرى. وفى معظم الأحيان كان ادعاء الغربى هو البرهان، ومثول المصرى دليلا على المسئولية. وبدا وكأن كل الضمانات القانونية والاحتياطات وعرائض الدعاوى والحواجز المعقدة للقانون الحديث قد زالت تمامًا وظل الهيكل فحسب ليغطى فضيحة العدل المحدد سلفًا.

إلا أن القانون كان جانبًا واحدًا فحسب من العلاقة بين الغربى والمصرى فى مصر. فالمقياس المزدوج بكل ما يجره من مشاعر التفوق، يشكل كل فعل ورد فعل فى المستعمرة الأوربية، ويمكن ملاحظته فى شكل التخاطب وفى المجاملات التى تمنع أو تحجب، وفى شعور الفخر والتكبر الذى يظهره الغربى، وفى شعور الذلة والطاعة الذى يتوقعه. والأرشيف الديبلوماسى والكتيبات الخاصة بتلك الفترة مليئة بالقصص والبيانات التى تعكس هذه العلاقة، ومن الممكن تأليف كتاب خاص عنها.

***

ومن وجهة نظرنا تعتبر النتائج المترتبة على هذا المقياس المزدوج ذات أهمية خاصة، فأولا: لمغزاها بالنسبة لوضع المستعمرة الأوروبية عمومًا، وثانيًا: لدورها فى نجاح وفشل ادوارد ديرفيو.

والأهم من كل شيء آخر، حتى من الثمن المادى الضخم للإمبريالية هو أن فرض الوضع الاجتماعى والروحى هو الذى شكل رد الفعل المصرى إزاء الأوربى. والحق أن أحدهما يتضمن الآخر، فالاستغلال المادى صعب بل مستحيل بدون عقوبة القيم المزدوجة والقانون المزدوج للسلوك الذى يناظرها. وإن لم يكن هذا القانون موجودًا كان على المستغل أن يخلقه. ومع ذلك فعند دراسة التأثير متعدد الجوانب للإمبريالية يتبين أن الإساءة إلى احترام الذات هى التى تؤلم أكثر من غيرها. فالسخط الذى يثيره الإذلال الروحى هو الذى يؤدى إلى استجابة غير رشيدة للاستغلال المعقول. والمقاومة غير المعقولة، وبالتأكيد غير المربحة، التى تبديها كثير من دول العالم المتخلفة اليوم للمؤسسات التجارية الغربية لا تفهم إلا فى هذا الإطار.

وصحيح أن الاستياء الطبيعى فى مصر من التمييز فى المعاملة ومن الوضع الأدنى قد عوضه إلى حد كبير إعجاب المصرى الحقيقى واحترامه لمنجزات الحضارة الغربية. ومنذ البداية حاول كثير ممن كانوا على صلة بالأجانب، بما فى ذلك الخديو نفسه، أن يقلدوا الغربى، وأن يحصلوا بهذا التقليد على موافقة جماعة كان تفوقها الحضارى والاجتماعى محل اعتراف ضمنى. ولقد كان ثمة عنصر مرضى فى جهود سعيد وإسماعيل لتقديم نفسيهما إلى العالم كأرستقراطيين بالمعنى الغربى. ولقد ذهب سعيد على وجه الخصوص إلى آخر حدود التطرف ليثبت نبل تربيته بالتبذير. أما إسماعيل فعل الرغم من قراراته المتعددة ضد هذا الاتجاه إلا أنه لم يتخلف كثيرًا عن سلفه. ولقد تشبه سعيد بدوق ماكسيماليان، وتشبه إسماعيل بأمبراطور فرنسا نابليون. والاثنان استقبلا فى مصر زوارامرموقين وغير مرموقين من أوربا فى بذخ لا يماثله إلا سخاؤهما فى رحلاتهما إلى أوربا. وكل منهما دفع جزاء خوفه من الخجل أمام العالم الخارجى. ولم يكن هذا الموقف مجرد ضعف واستغلال للنفوذ كأداة فى السياسة، فلا شيء يوضح قوة التطلع إلى موافقة الغرب قدر احتفال إسماعيل بافتتاح القناة، هذا الاحتفال الضخم لعمل فاقت تكاليفه فى الهم والأسى تكاليفه فى النقد والمال.

غير أن هناك حدا لفاعليه عنصر السمعة. ففى كل علاقة بين الأدنى والأعلى، يتعلم الأدنى فى النهاية أن يتمرد على وضعه. وفى مصر حيث كان للسكان الوطنيين حضارة متقدمة عظيمة، ومقياس مزدوج لأعضاء المجتمع المسلمين وغير المسلمين، كان من المحتم أن يظهر رد فعل معاد. وفى هذا المجال لدينا خطاب مثير للكولونيل ميرشر، (معلم الأمير توفيق ابن إسماعيل) يحذر رؤساءه فى باريس من تأثير المعلمين الأتراك والعرب الضار عليه. كتب ميرشر يقول: إنهم ملئوا رأس الصبى «بأسوأ الاتهامات ضد الأوربيين، على الرغم من أنه بفضل هؤلاء لم تتجه هذه البلاد التعيسة إلى الفوضى والبربرية منذ موت محمد على». ونتيجة لهذا بدا

الصبى توفيق يجرى هنا وهناك يتحدث عما سيفعله عندما يصبح حاكمًا لمصر، ويعلن لكل من يود أن يسمع أن المساهمات التكنيكية من الحضارة الغربية فى مصر ليست إلا أضحوكة، وأن كل شىء فى العالم الغربى أتى من العرب فى المحل الأول. ويقول ميرشر فى فزع: «إنه مقتنع أن الكتاب العرب وضعوا منذ زمن طويل الآلة البخارية والسكة الحديدية.. إلخ»:

وفى صراع بين غريمين غير متكافئين فى القوة، يكون رد فعل الضعيف مشروطًا بتفاوت القوى. فعندما يكون الضعيف أضعف بكثير لا يستطيع فى أفضل الأحوال مضايقة العدو، وعندما يكون الطرفان أقرب إلى التساوى يمكن أن يلجأ إلى القوة المكشوفة وإن كان يتجنب المعارك الكبيرة، وإذا كانت الظروف مواتية بشكل خاص يستطيع الطرف الأضعف أن يطرد الطرف الأقوى من البيت، ودليل ذلك (عبدان) و (السويس)[1]!.

وفى سنة ١٨٦٠ كانت مصر فى مرحلة المضايقة. فالبوليس المحلى الذى كان يضايقه فقدان السلطة على الأوربيين، كان ينتقم بتطبيق تعليمات «وقوف العربات» على عربات الأجانب، ويترك سائقى عربات المصريين يفعلون ما يشاءون، وموظفو الجمارك يمكنهم مضايقة رجال الأعمال الأجانب بالأخطاء والإحراج، وكتبة الخزانة يمكنهم إغضاب ديرفيو ببطء حساباتهم ومراجعاتهم، وإسماعيل يمكنه أن ينتقم من مقرضيه ومتعهديه ومقاوليه والمعذبين الآخرين بالتأخيرات المعذبة، والوعود المضللة وطرق مماثلة.

وصحيح أن هذه التاكتيكات كانت تكلف إسماعيل أموالا، وكان المراقبون الغربيون مندهشين باستمرار من إصرار الخديو على هذه الوسائل غير المجزية، إلا أنها كانت تقدم له نوعًا من الراحة النفسية.

هذا هو ما فشل ديرفيو فى إدراكه إلا فى آخر الأمر بعد فوات الأوان: فمع كل الصعوبات النقدية التى أجبرت إسماعيل على التراجع فى التزاماته وارتباطاته كان هناك عنصر من الخبث المدبر سلفًا. والواقع أن إسماعيل، كما أحس أندريه بسرعة كان ينوى استخدام مموليه كما كانوا ينوون استخدامه، وبينما يصعب أن نقول كم من هذه النوايا سبق خبراته فى حكم مصر (حتى قبل توليه العرش كانت لإسماعيل أفكار عن استغلال الغرب لسلفه) إلا أن هذه

---

(١) يتجاهل المؤلف فى هذه الفقرة حقيقة هامة، هى أن قوى الشعوب الثائرة من أجل التحرر الوطنى حتى أصبحت اليوم بالفعل - عند تجمعها - أقوى من قوى الاستعمار. وإذا كان مصدق قد فشل - فى نهاية الأمر - فى معركة عبدان، فما ذلك إلا لأنه تجاهل هذه الحقيقة ولم يستفد منها. أما مصر الثورة فقد أدركت هذه الحقيقة وتصرفت على أساسها ولذلك انتصرت فى معركة السويس ضد العدوان الثلاثى.

(المترجم)

تدعمت ورسخت خلال حكمه بعد ١٨٦٣. والحق أن إسماعيل الخديوى قضى جزءًا كبيرًا من حكمه يتعلم (على حساب أخطاء عديدة باهظة كلجوئه إلى نابليون للتحكيم فى مشكلة قناة السويس) كيف يحمى نفسه من جشع الأجنبى، والأكثر من هذا كيف يمكن استغلال هذا الجشع لأغراضه الخاصة. وإذا كان فى عمليات الدفاع والهجوم يلجأ غالبًا إلى الطريق غير المباشرة والخفية، فإن السبب فى هذا مجرد إحساسه بأن المواجهة المباشرة ليست فعالة مع مثل هذه القوة الصريحة المتفوقة. إذ إن إسماعيل لم يكن يريد استغلال الأجنبى فحسب، بل كان يريد إيلامه.

وفى ربيع ١٨٦٨ كتب ديرفيو إلى أندريه يعبر عن «حزنه الشديد لأن يرى الخديو يناور بهذا الخبث ويستمر فى حنثه وكذبه»، ومن الصعب على ديرفيو أن يصدق ذلك: «لقد كنت شبه واثق أن البرقية ستفسر لك الحقائق التى كان على أن أكتبها». وبعد توقف الشركة الزراعية بسنتين لم يكن ديرفيو متحررًا تمامًا من أفكاره القديمة.

ولقد كان ديرفيو ضحية خُلُقياته. فمقياسه المزدوج لم يكن قائمًا على أساس الاحتقار وعدم الثقة وإنما كان قائمًا على الأبوية الخيرة. ونتيجة لذلك لم يكن مسلحًا بالشك أو القسوة التى كان زملاؤه مسلحين بها. وعندما قدم نوعًا من اللباقة مثلها ولم يدرك أبدًا النتائج المزدوجة الجانب لمثل هذه العلاقة. فلا غبار فى أن تنتزع من إسماعيل كل ما يمكن انتزاعه منه من نقود. ولكنه من الغباء أن تتوقع من إسماعيل رد الجميل.

***

ثمة نهاية قاسية وساخرة لكل هذا، فقد صرف سعيد وإسماعيل ملايين الجنيهات للمحافظة على حسن العلاقة مع الغرب ولكسب احترامه وإرضاء مطالبه ومنع غضبه. ولكن الغرب – وقد أثارته المبالغات المتعصبة فى عالم اليوم – لا يذكر إلا مضايقات ومراوغات واحتقار الأمس. ومن الذى دفع ثمن القناة؟ فرنسا. ومن الذى بناها؟ دى ليسبس «أعظم مقاول فى العالم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر».

غير أن سعيد وإسماعيل أنفقا ملايينهما لسبب آخر، هو إحياء عظمة مصر وترك آثار خالدة بعدهما[1]. فقناة السويس هى الهرم الأكبر فى الأزمنة المعاصرة، والشركة المجيدية هى نواة الأسطول البحرى والتجارى. واليوم يتذكر المصريون، النفاية، الضعف فى مواجهة مطالب

(١) إن التوفيق يخطئ المؤلف فى هذه الفقرة عندما يحاول أن يعطى لأعمال سعيد وإسماعيل باعثًا وطنيًا، وعندما يقول إن المصريين لا يتذكرون إلا النفاية. فما يسميه المؤلف بالنفاية هو فى الحقيقة بيع مصر واقتصادها ومصالحها وشعبها للاستعمار الأوربى وذلك ما لا ينساه المصريون – ولا يستطيعون غفرانه – لسعيد وإسماعيل.

الغرب، بيع أسهم القناة إلى إنجلترا، إفلاس ١٨٧٦. لقد كانت هناك سفينة من سفن الشركة الخديوية التى تملكها الحكومة، والتى أعقبت الشركة المجيدية، تدعى «الخديو إسماعيل». وفى أغسطس ١٩٥٦ عند قمة الصراع حول السيطرة على قناة السويس غير اسم السفينة وأصبح «كليوباتره» وليست أسماء مثل بورسعيد والإسماعيلية غير قابلة للتغيير أيضًا!.

عندئذ لن يكون هناك شىء باق غير الذكريات المريرة..

obeikandl.com